افتتاح الجامعة المصرية

ذكرنا في الجزء الماضي ما كان من افتتاح الجامعة المصرية ووعدنا بنشر بعض الخطب التي تليت حينئذٍ لانها تدلُّ على منهاج التدريس فيها

خطبة عبد الخالق باشا ثروت احد اعضاء مجلس الادارة

قال مخاطباً الجناب الخديوي

مولاي

ان تاريخ الجامعة المصرية لصحيفة من صحف مآثركم الجليلة بل هو لسان صدق ينطق بما في نفسكم الشريفة من الميل العظيم لرقي البلاد واسعادها

وان نهوض الامة الى احياء العلم لوحي تلقتهُ عن ارادتك العالية. فلا غرو ان أخذت حركة العناية بنشر التعليم تنمو وتزداد الى ان عمت جميع الطبقات واقبل الناس اقبالاً محمودًا على انشاء دور العلم وتسابقوا الى تشييدها

الاَّ ان الامة المصرية لم تقف بها عند هذا الحد رغبتها في بلوغ الدرجة المبتغاة لها بين الامم الراقية بل تطلعت الى ما هو اسمى من ذلك من درجات التعليم

نظرت فاذا التربية العملية في مصر الآن لا تزال ترمي الى اعداد ناشئة تقوم بحاجات البلاد وتخريج شبيبة يشتغل كل منها في فنهِ وصناعتهِ وان دائرة التعليم قد قصرت لذلك على القدر الضروري للوصول الى هذه الغاية فخلت البلاد من مشهل علمي يستقي منهُ طلاب المزيد عن هذا القدر

رأت ان حاجة الامة الآن الى علماء راسخين في العلم ليست بأقل من حاجتها في الازمان السابقة الى متعلمين عاملين وانهُ قد حان الوقت لتخريج شبيبة تأخذ بيد الامة فتحلها المقام الذي يجب ان يكون لها بين الامم الراقية ذلك المقام الذي لن تناله الاَّ اذا اقبل ابناؤها على العلم حبًّا في العلم ولم يقتصروا منهُ على ما يستفتحون بهِ ابواب الكسب والارتزاق

رأت ان العلماء في البلاد الاخرى يكادون يأتون في كل فرع من فروع العلم بالعجزات فكم من مبتكرات مخالها خلقًا سماويًّا جديدًا جاءنا خبرها من اوربا وغيرها ونحن نكتفي من ذلك البحر الزاخر بغمة الوشل ! وكم من مخترعات مبدعات وآيات بينات فتح الله بها على اولئك العلماء وحظنا منها حظ المتفرج !

رأت انهُ من النقص ان تبقى مصر عالة على الامم بعد ان كانت تفديها بالعلم والعرفان وان تظل في مثل هذا العصر خلوًا من جامعة تسوغ لها طائفة تجد ذكرها كما كان ذكرها تجدًا في ماضي الايام والعصور الخالية

رأت كل ذلك وحق لها ان تراهُ وتقديرهُ . فلا جرم ان قامت قومة واحدة تدعو الى انشاء تلك الجامعة

فولَّت وجهها بادئ الرأي شطر الحكومة ونظرت في المسألة من وجهة الواجب عليها فرأت ان الحكومات في جميع بلاد الدنيا لا تستطيع وحدها النهوض بالامة من طريق التعليم وانهُ ليس من امة فقهت الى مثل ما فقهت اليهِ الامة المصرية من الحاجة العليَّة الاَّ واخذت بيد حكومتها في هذا السبيل وان الفضل في ترقية التعليم في البلاد الاخرى يرجع اكثرهُ الى جمعيات امست دورًا للعلم وتكفلت في اداراتها وانتصرت مهمة الحكومة فيها على تعضيدها ومساعدتها بقدر الامكان

فلما احست الامة بما هو واجب عليها بازاء هذا المشروع توجهت عنايتها الى الحث عليهِ وتحقيق الغرض منهُ وهنالك انقسم الناس الى مستطير يخاف على المصريين ان يقدموا على هذا المشروع فيحبط عملهم فينالهم من العار ما كانوا في غنًى عنهُ . وستبشر يرى في يسر الحال وهمة المصريين وأريحية شمائلهم ما يحمل على الاعتقاد بان عملهم سيكلَّل بالفوز ويتوج بالنجاح

ولقد دل الواقع على ان المصريين والحمد لله اهل لهذا الجد المحمود فقد تبرَّعوا ولم يشنهم عن العطاء شدة نزلت بالبلاد فاستحقوا لهذه الاريحية عطف كل محب لترقية العلوم والمعارف

بيد ان ما جمع من تلك العطايا المشكورة ما كان يكفي وحدهُ لابراز هذا العمل الكبير من ظلمة الفكر الى نور الوجود

هنالك يا مولاي هبت على الجامعة وهي وليدة لا تعلم حياتها من موتها هبت عليها نفحة مباركة من لطفائك السامية . فدبت فيها روح الحياة فكان لا بد من ان تخطو وتدرج

تفضلت حفظك الله فتقبلت ان تكون الجامعة تحت رعايتك العالية وشرفتها برئاسة الامير ولي عهدك الكريم رئاسة شرف وبرئاسة صاحب الدولة عمك الامير الجليل احمد فؤاد باشا رئاسة فعلية وامرت رعاك الله فجريت عليها اعانة سنوية

بفضل تلك الرعاية السامية وفي ظلها الوارف تكونت الجامعة ووضع دستورها واخذت لجنة ادارتها في البحث عن اقرب الطرق لاظهارها في الوجود وادخالها في طور العمل

ولما كان من الضروري ان يكون التدريس فيها باللغة العربية عولت البعثة على ان تبعث بارساليات الى البلاد الاوربية حتى اذا ما اتم اعضاؤها دروسهم واستقصوا العلوم التي انقطعوا لها هناك عادوا وقاموا بالتدريس باللغة العربية كلٌّ في عملهِ الذي اختص بهِ

وقد أوفدت الجامعة لهذا القصد الشريف في اوائل الصيف الماضي جماعة من خيرة النابغين من الشبيبة المصرية وهم الآن مقترنون في ربوع تلك الاقطار المتنائية لتحصيل العلم العالي وادخاره ليوم رجوعهم الى مصر فيبثُّونها لعلمهم وتعليمهم كما يبثُّهم بعثاتها بتربيتهم ويكونون عدتنا واساطين جامعتنا في نيل امانينا

ولما كان تحقيق هذا المقصد يستلزم زمناً طويلاً لتحصيلاً بالفائدة تقرر ان يقوم من الآن بعض العلماء بتدريس بعض العلوم التي لم تنل الى الآن في مصر حظًّا وافرًا من العناية مع ما لها من الاهمية والاثر الحسن في ترقية المدارك وانارة البصائر

ولما كان من المحقق ان جميع الامم عند ما تأخذ باسباب النهضة لا مندوحة لها عن محاكاة الشعوب التي اصابت اوفر قسط من الحضارة الراقية وكان الاخذ عن امة من الامم يوجب الوقوف على اساليبها ودرجة تصورها وكيفيَّة تدرجها في ترقيها فقد اختارت الجامعة ان تمشي مع ذلك الناموس الطبيعي بتلقين الطلاب فنون الاديات عن الامتين الكبيرتين اللتين انتشرت لغتهما بين المصريين انتشارًا كبيرًا فقرَّرت تدريس علوم الاديات عند الفرنسويين وعند الانكليز كذلك رأت من اول الواجبات عليها ان يكون في مقدمة ما يدرس في جامعة مصريَّة تاريخ الحضارة القديمة في مصر والشرق وتاريخ الحضارة الاسلامية تلك الحضارة التي لا يزال اهل الفضل من كل الامم الراقية يذكرونها مقرونة بالاعجاب والاحترام . ومن اولى من المصريين بالوقوف على حقائق هاتين الحضارتين لتحقيق نهضتهم الحالية واسترجاع ما كان لاسلافهم من مجد عظيم ومقام كريم

وها نحن أولاء نحتفل اليوم باول خطوة تخطوها الامة المصريَّة لترقي الى مستوى الامم الناهضة . نحتفل بوضع اول درجة من سلم العروج الى اوج العزة والفخار

فاليك يا سيد البلاد وأميرها ترفع الجامعة فروض الشكر والثناء على ما اوليتها من نعم حققت بها آمال المستبشرين وأثلجت بها روع المتطيرين الخائفين

وان كل محب لخير بلاده ليحفظ لك في سويداء فؤاده ذكرى تشريفك هذا الاحتفال متوجًا لمساعيك السابقة باعلان رضائك السامي عنها وتلك اللذة لتحقيق ما ترجوهُ لامتك من الخير والسعادة وأتم نعمهُ عليك من التوفيق والسداد

خطبة احمد زكي بك احد اعضاء مجلس الادارة وسكرتير الجامعة

مولاي

يلاذ بك مهد الحضارة والعرفان

لذلك كان حقًّا على الجامعة المصرية ان تستنجح بتوجيه الانظار الى مفاخرها في قديم الزمان والى مآثرها في دولة الاسلام : تمهيدًا لما ترتجيه من النجاح في خدمة هذه البلاد وفي اعادة العلوم الى لسان العرب الذي وعاها واستوعبها في ايام هارون والمأمون

تلك الامنية العالية ستحتقق للجامعة بفضل الله لانها مرموقة بعناية العباس

***

ازهرت الحضارة على ضفاف النيل الغناء وايتعت ثمراتها في عهد الفراعنة الاقدمين وها هي بقايا آثارهم تحدثنا بما بلغوه من المكانة العليا في تحصيل المعارف والاجادة في كل انواع الفنون والصنائع . ولا يزال اهل البحث والاستقراء يكشفون لنا في كل يوم من خفايا علومهم ويخرجون اسرارهم ما يقضي بالعجب العجاب ويشهد لهم بالاسبقية والرجحان

انتقلت الحضارة الى الاسكندرية في عهد البطالسة فكانت دار العلم والتعليم وحفظت لبلادنا في سجل التاريخ تلك المزية التي تفردت بها مصر في العالم القديم . وكللتها بتاج من الفخار ما زال بهاؤه ساطعًا رغمًا عن تصاريف الزمان وعبث الايام

جاء الدور للاسلام . فرفع رايته على المشارق والمغارب . واخرج من بطون الرمال الذهبية مدينة القاهرة التي قامت على الرطيبة وسنف وعين شمس وصارت كعبة للعلم ومنهلاً يتزاحم عليه طلاب الفضل وعشاق المعالي

***

كما كانت الثور تسابق مملكة الفراعنة في احراز السيادة السياسية وتوسيع دائرة المعلومات البشرية كذلك ظلت باسم العراق تجاري وادي النيل في هذا المضمار عند ما اشرقت عليها سنا انوار الاسلام . ولقد بلغت المناظرة الادبية والمزاحمة العلمية بين القاهرة وبغداد حدًّا يقضي بالدهشة والاستغراب . اذ كانتا تخاطفان اهل العلم وكتب العلم استكثارًا بالفضل واهل الفضل . حتى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً اتفق مع احد علماء مصر فاشترى منه عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فقام وقعد واستكبر هذا الخطب واستنكره . وقال : كيف تحرم مصر من ذخائرها واعلاقها وكيف ترضى بتجريدها من حللها وحليها وهل يسمح انتقال كنوزها الى غيرها

ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ؟ تالله هذا لا يكون ابدًا . ثم بعث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومهُ عليهِ رسول العراق ونقل الكتب الى خزائنهِ وكتب عليها القابهُ

امة هذه عناية فرد من عظمائها وتلك غيرة واحد من رؤومها لا يبعد عليها ان يكون في دار خلافتها مكتبة جامعة عدها اهل الدراية من عجائب الدنيا . وقالوا انهُ لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منها . وغير الاسلام في ذلك الوقت لم يكن شيئًا مذكورًا . بلغ عدد المجلدات في هذه المكتبة النادرة ٦٠٠٠٠٠ مجلد وقد ضاعف بعضهم المليون فجعلهُ اثنين . وكانت تحوي ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري البغدادي منها واحدة بخط المؤلف . وكان فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة و ١٨٠٠٠ كتاب في علوم الاقدمين . فضلاً عن كرة من النحاس تمثل السماء بكواكبها من عمل بطليوس القالوذي صاحب المجسطي واخرى من فضة صنعها عبد الرحمن الصوفي الفلكي المشهور للملك عضد الدولة البويهي . وهذه الكرة من ذخائر بغداد التي استحوذت عليها مصر كما استأثرت ايضاً بجيازة تاريخ الرسل والملوك الذي كتبهُ الطبري بخط يدهِ . فهل يكون من العجب اذا قلت ان الخليفة الفاطمي كان يكثر من التردد على مثل هذه المكتبة البديعة ليجيء اليها راكبًا ثم يترجل عندها ويجلس على دكة مخصوصة فينظر في كتب العلم ويستعير منها ما يستفيد منهُ . وكان من تقاليدهِ انهُ بعد فراغهِ من المطالعة يدخل اليها ويمشي فيها لتشجيع الطلبة بالمخالطة وحضهم على الاتقان بالمجالسة والمؤانسة

تلك ايام قد خلت

ولكن التاريخ ما زال يعيد نفسهُ على الدوام . ولذلك ترجو الجامعة المصرية ان تعيد هذه الايام كرة أخرى . وما ذلك على الله بعزيز

***

هذا كان شأن الشرق من حضارة الاسلام . ولكن الغرب لم يكن اقل منهُ حظًا . فلقد قضت نواميس العمران ان الحضارة تتولد وتنمو على شواطىء البحار وخصوصاً على مجاري الانهار . فكما كان لها شأن كبير في ايام الاقدمين والاسلاميين على ضفاف النيل ودجلة والفرات كذلك كان للحضارة الاسلامية اثر مشكور على شواطىء الوادي الكبير فلقد كانت قرطبة قاعدة الاندلس عروساً في بلاد الغرب ومنبعًا للعلم والفضل حتى افاضت على ديار اوربا تلك الاشعة الاولى من علوم الاسلام . اشعة استنارت بها في ابان نهضتها اثناء

القرون الوسطى وكانت كمقدمة تمهيدية لما وصلت اليه الآن ممالك الغرب مشرقاً لنور العلم والتمدن في هذه الايام

ماذا القول عن قرطبة وقد اطبق العارفون على انها كانت اكثر بلاد الدنيا كتباً ؟ أو لم يأتكم حديث الفيلسوفين ابن رشد وابن زهر حينما تناظرا بحضرة المنصور يعقوب ملك المغرب في المفاضلة بينها وبين اشبيلية ؟ قال ابن رشد لصاحبه وهو يحاوره : "ما ادري ما تقول . فغير الله اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها . وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية"

وفي هذا المقام لا ارى مندوحة عن التذكير بان الاسلام لم يكن خلواً من الجامعات فقد اشتهرت بغداد بكثرتها وان كان لها نظام غير المألوف الآن . واشهرها المدرسة النظامية فقد تحدى بها اهل العراق صنيع المصريين الذين سبقوهم بتأسيس الازهر المعمور . غير ان القاهرة لا تزال تفتخر به الى الآن . وكذلك كان في البلاد الاخرى التي بسط الاسلام ظلها رايتهُ حيناً من الدهر جامعات اخرى مثل التي كانت في بلرم صاحبة صقيلية وفي القيروان بتونس وفي معظم مدائن الاندلس . بل قد اوجدها في غير البلاد التي دانت لسلطانه فان فرنسا مدينة للعرب بتأسيس وانجاح احد معاهدها العلمية الكبيرة . واعني به مدرسة الطب في مونپلييه . هذه المدرسة التي لا تزال زاهرة يانعة الى الآن مع ان الجامعات الاسلامية قد دخلت في خبر كان . ثم فان عرب الاندلس ويهودها هم الذين ادخلوا التعليم الطبي اليها وقد استمر فيها سنة اربعة قرون تقريباً بواسطة تآليف ابن سينا وابن رشد وقسطا بن لوقا وحنين وابنه اسحاق وابن ماسويه والرازي حتى كانت سنة ١٥٢٦ للميلاد فاستبدل القوم اساتذة المشرق بالمعلمين اليونانيين عند ما عثروا على تصانيفهم الاصلية التي اهتدى العرب بتراجمها

وهذه مصر حينما شرعت في اعادة العلوم الى حظيرتها اوفدت عدداً كبيراً من ابنائها لاغتراف العلم في مونپلييه من ذلك المعهد الذي يعود فخارهُ الحقيقي الى اجدادنا الكرام . وها هي اليوم تستقدم الاساتذة من انكلترة وايطاليا ومن غيرها من البلدان التي امتازت بالعلم والفضل

والايام دول ونواميس الكون اخذ وعطا

***

نرجع للاندلس ونقول ان اهلها قاطبة قد توفروا على العلم لذاتهِ والذاتهِ . لا فرق في

ذلك بين الغني والفقير والمملوك والامير . بل كانوا كلهم سواسية في التهافت عليه وعلى اقتناء الكتب لا للافتخار ولكن للمذاكرة والمحاضرة . ولم يكن هذا الولع قاصرًا على عامة الناس بل شاركهم فيه ملوكهم ايضًا . فان الخليفة الحكم جمع لنفسه مكتبة خصوصية احتوت على ٤٠٠٠٠٠ مجلد كلها من النفائس والغرر . هذا عدا المكاتب العمومية الحافلة التي ازدانت بها قرطبة وغرناطة وأمهات المدائن بالاندلس

فاذا رجعنا ادراجنا الى بلاد الشرق رأينا للاسلام في بلاد الشام هذا الاثر المحمود ايضًا . وحسبي ان اشير الى المكتبة التي جمعها بطرابلس بيت من بيوت القضاة وهم آل عمار فانها بلغت ٣٠٠٠٠٠٠ مجلد ولكنها قضى عليها نحس الطالع فذهبت كلها طعمة للنار . كما ابادت النار مكتبة القاهرة وكما دمر التتر مكاتب بغداد التي كانت فوق الوصف والتعريف وفاقت كل ما سبقت الاشارة اليه . احرق هؤلاء المدج تلك الجامع الثمينة وخلطوا كثيرًا منها بالطين والماء واستخدموا هذه المجينة الغريبة في بناء جسر (كوبري) للمرور على نهر دجلة

تلك ايام قد خلت

فهل تعود للجزيرة بهجتها السابقة وحضارتها الفائقة

هذا ما نتناهُ من صميم الفؤاد خصوصًا وقد اخذت اسباب الاصلاح والعمار تتراجع الى ما بين النهرين في هذه الايام

***

بماذا تقدم الاسلام

بالرحلة في طلب العلم وتقييد اوابده ونشر فوائده

لقد كان المسلم رهين الاسفار كما هو شأن الامم الراقية الآن . كان المسلم كلما فارق ديارهُ ولو على سبيل الكسب والتجارة فكأنما هو موكل بالاكتشاف والاستطلاع يحمل الى ما يزورهُ من البلدان بضاعتهُ المادية ومعها بضاعة اخرى غير مزجاة : بضاعة مضمون لها الرواج واعني بها ما وصل اليهِ من حقائق العلوم وطرائف الآداب . وكان لا يغفل عن ان يسجل في صحائف اسفارهِ ما يعثر بهِ من ثمرات رقي القوم . حتى اذا انقلب الى اهلهِ كان قد افاد واستفاد ونفع وانتفع وعلم وتعلَّم . وهذه فوائد الفئة العربية في ألسنة الامم المتمدنة شاهدة بما كان للمسلمين من الاثر الجيد في بلاد الامم الاخرى كما ان في الكتب والعلوم التي ابقتها

لنا تصاريف الايام من تراث اجدادنا الكرام كثيرًا من الاصطلاحات الاجنبية الدالة على رواج سوق المعارضات العلمية وعلى ان اهل الشرق والبعيدي الانظار لا يستكفون من تبادل الثمرات التي يصلون اليها من طريق البحث والدرس

اما الآن وقد تعددت الصلات بين الشرق والغرب وسهل تناول الفوائد العلمية بفضل البخار والكهرباء فستكون جامعتنا ان شاء الله كحلقة اتصال بين العالمين حتى نأخذ بلا استكبار ما تلقفهُ الفرنج عن اجدادنا ونضيف الى سلسلة معارفنا حلقات جديدة لم يعرفوها وقد جاد بها الزمان على ما تقضي بهِ نواميس الارتقاء .

هذه هي ايها السادة بعض الاسباب التي دعت هذه الجامعة الى الابتداء بالابتداء فقررت تدريس الحضارات الاسلامية والقديمة وأضافت اليها ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها باوربا

***

نعم ان الشرق عاد بعد تلك الحركة الهائلة الى سبات عميق فنزل الى الحضيض . وبعد ان وقف في مكانهِ ساكنًا جامدًا اخذ الآن يتنبه ويتحرك حركة خفيفة . فابصر المعارف قد ترقت في بلاد الغرب الى درجة تتضاءل دونها القوى والافهام . احست امم الشرق بما يتهددها من خطر الجمود والوقوف واصبحت كلها وهي شاعرة بالحاجة الماسة الى تلقي ثمرات العلوم التي وصلت اليها اوربا وتمثيلها بما يوافق طبيعتها ومزاجها . فكانت اليابان في الشرق الاقصى اول من نفض غبار الكسل والخمول ووصلت في نصف قرن الى درجة الامم الراقية بل بذَّت كثيرًا منها . وها هي الامة المصرية في الشرق الادنى قد ادركت ايضًا هذه الحاجة فهبت عن بكرة ابيها وتعاون ابناؤها لاحراز الفخار بالسعي سعيًا لاعادة القطر الى مجدهِ السابق . فاسست الجامعة المصرية التي ستعمل على ارجاع اللغة العربية الى مقامها المجيد في ميدان العلم وفي حلبة الامم

كيف لا تتوصل الجامعة المصرية لتحقيق هذه الغاية الكبيرة وقد هبت عليها نفحة من نفحات مولانا العباس : نفحة تثمن لمصر وللاسلام عودة تلك الايام الزواهر التي ازدان بها عصر بني العباس

فبعهد الخديوي عباس تفتح الجامعة ابوابها للناس